أوراق من دفتري

هاني فحص

بسبب عشقي للغة العربية واهتمامي بتفاصيل عاشوراء وشهادة الحسين ، وحفظي لرواية الواقعة ، وتكرار تلاوتها ، عشت سنوات تلمذتي في المرحلة المتوسطة ، شيخاً على أهبة الذهاب الى الحوزة العلمية الدينية في النجف (العراق) التي لم أكن أعلم عنها شيئاً ، سوى أنها يتخرج منها ألوان من رجال الدين ، لون يهتم بالآخرة ، آخرته وآخرة الناس ، يريد أن يدخل الجنة ويدخل الآخرين بالقوة ، من دون سؤال ، ومن دون أن يرشدهم الى الطريق ، ولون كسول لم يحصّل علماً يمكّنه من التوازن والموازنة بين الدين والدنيا ، فيتحول بابتذال الى الدنيا ، ويتحمله الناس لما يرمز اليه .. ولون مسكون بالماضي وقلق على المستقبل ، ميال الى التعلم من الناس عن قضايا العدالة والعلم والوطن والآخر والوحدة والتقدم الخ .. وضعت هذا اللون الأخير نصب عيني .. وذهبت الى النجف في تشرين الأول عام ١٩٦٣ م. حاملاً الشهادة المتوسطة ، التي تأخرت سنة عن موعد الحصول عليها ، لأن أولاد خالي أغروني بترك الدراسة والعمل في بيروت لمدة سنة ، تنقلت خلالها من شغل الى شغل مع فشل متكرر ، حتى استقريت لأشهر في تعلم مهنة الخياطة ، ولكن محيط أهلي اعترض عليّ ، لأني وحيد بالإضافة الى أن استعدادي للعلم لا بأس به ، وأعادني خالي الى المدرسة المتوسطة في النبطية ، قبل أن يهاجر الى افريقيا للعمل .

ولا أدري ، بل أدري ، أن خالي الذي ذهب الى ليبيريا خالي الذهن من أي صورة لها جغرافياً وعمرانياً وديموغرافياً وثقافياً وعلائقياً ، خصوصاً في ما يعود الى العمل وعلائقه وشروطه ووضع الجالية اللبنانية وطريقة حياتها وعملها ومشاعرها وصراعاتها ، لم يكن مندهشاً وحائراً أكثر مني عندما شرعت في التعرف على النجف . كنت قد بلغت الحلم قبل سنوات ، فانفتحت على الأحلام

، وهي بقدر ما هي جميلة تصبح قاسية عندما تبتعد عن الواقع فتفتك بقدرتك على التعامل مع هذا الواقع ، تغيير الواقع بالحلم مستحيل . أما أن يتحول الحلم الى مناخ لحركة تغيير للواقع بشروطه وأدواته وأولوياته الداخلية ، فأمر محمود النتائج . لقد استمرت فترة الأحلام لدي زمناً طويلاً جداً ، جزء منه فترة اقامتي في النجف حتى عام ١٩٧٢ م. ما جعلني ، على عفويتي وحسن نيتي ، وهو ما يقرّ به

*كاتب ومفكر من لبنان

حتى الذين أختلف معهم وأصرخ في وجوههم ، تحولت مع عدد من زملائي وأترابي الى جماعة

شغب، شغب فكري . كنت كثير الاعتراض والاحتجاج والسؤال والجدل ، لا أعادي أحداً ، ولكن من يضمن أن لا يعاديك الذي تختلف معه وتصارحه ؟ إذا لم تكن دقيقاً في إدارة معركتك لتستطيع فصل العام عن الشخصي لديك ولدى الآخر .

وهكذا تحولت حواراتي وسجالاتي وجدالاتي مع أساتذتي وزملائي ، حول الشأن الديني والفقهي والحوزوي والأدبي والسياسي الى مصدر للتقول عليّ في حياتي الدينية ، وإن كان كثيرون يسرون إليّ بأن لا أحد مقتنع بأني متهاون في شيء ، بل كنت متزمتاً في الشأن المالي ، ومعترضاً في الوقت نفسه على بعض المسلكيات في هذا المجال ، لأن ما عرفته عن الحوزة أنها في تاريخها كانت متشبثة باستقلاليتها ، والمدخل الى ذلك هو العفة في الأموال وعدم تلقيها كيفما اتفق . ومن هنا أصبح واقعها قائماً على أن أهلها وأهل الإبداع الحقيقي فيها هم الأشد فقراً ، أي عفة ، لأنهم يعوضون بالمعرفة عن ضيق ذات اليد .. ولم ألتفت إلا متأخراً الى أن أدائي لم يكن منسجماً مع مقاصدي ، وكان لي بانفعال أقل أن أطرح أسئلتي المنهجية حول الحوزة باعتبارها حاضرة دينية علمية لا بد أن تديم حضورها بتجديد ذاتها على مقتضى التحديات العلمية والعملية ، وبذلك أتجنب التوتر والتوتير والوضع الإشكالي الذي قد لا يعطلك ، ولكنه يحرمك من أرباح مشروعة كثيرة في الفضاء المعرفي العام ، ويحرم محيطك من الإفادة من حساسيتك وطموحاتك واستشرافاتك .

هكذا قدر لي ، بعد فتور في حرارة القلب والعقل ، وميل الى التأني والروية والواقعية ، أن أشعر بأني حُرمت وحَرمت نفسي من كثير من فوائد إقامتي في الحوزة ، ما عدت قبل عقدين من الزمان الى تعويضه ، فأخذت نفسي بالمتابعة اليومية ، وكأني ما زلت طالباً في النجف ، من دون أن أعطل حركتي المعرفية في الحقول المختلفة، حقول الحداثة والعلوم الإنسانية والفكر السياسي والآداب . كأني ذاتياً أعدت الوصلة بين الأصالة والتقليد وبين المعاصرة والتجديد ، ما كانت النجف بحاجة اليه .. وجعلني بعد ثلاث سنوات أنتمي الى كلية الفقه التي أسستها جميعة منتدى النشر ، التي

حملت لواء التجديد في النجف من دون قطيعة مع الذاكرة ، ودرستُ على مدى أربع سنوات برعاية أبي الروحي عميد الكلية السيد محمد تقي الحكيم . درست الفقه المقارن والقانون المقارن وعلم الاجتماع والتربية والنفس والفلسفة الاسلامية الحديثة والأدب العربي القديم والحديث الى جانب علم المنطق والأصول والفقه والبلاغة والتفسير والتاريخ ، وعلى أيدي أساتذة من مناشىء وسياقات مختلفة ولكنها مؤتلفة على تحصيل ونشر معرفة جامعة للتعدد والمتعدد على مقتضى التوحيد والوحدة .

كان أساتذتنا من علماء الحوزة وأدبائها ومن جامعة بغداد وجامعة القاهرة . استفدنا منهم كثيراً ، وكثر منهم من الآتين من خارج الحوزة شهدوا لنا بأنهم استفادوا منا .. إذن فقد انحلت مشكلتي جزئياً ، فهذه مساحة في الحوزة ، كلية الفقه ، مكان للاختلاف والحوار ، مكان للوصلة بين الذاكرة والرؤية ، بين الماضي والحاضر ، بين المنجز وإشكالياته وبين الذي ينتظر إنجازه على إشكاليته . وما لبثت أن تخرجت من كلية الفقه ، حتى عدت كلياً الى الحوزة ، التي لم أنقطع عنها . أي أني تابعت دروسي الحوزوية مع دروسي في الكلية، فكان عليّ أن أغرق ثانية في السجال الحوزوي ، على توتر اشد ، ذلك أني عدت من الكلية أكثر حماسة الى التغيير . ما يعني ان فترة الأحلام قد استمرت .. وأدركني الخوف ، لولا أن النظام العراقي أخذ يشدد قبضته على الحوزة لإلغائها أو استتباعها . ولأنه مغرق في تقليديته حتى الجمود أو التخلف التام ، قرر أن يتسلح بمظهريات حداثية في معركته مع الحوزة ، فوضع عينه من خلال أجهزته الأمنية على نماذج من طلبة العلوم الدينية ، مهجوسين بالتغيير وكثير من الاعتراض والسؤال . وكنت منهم . لم يراودني عن شيء ، وإنما قرروا أن يستثمروني من دون تواطؤ معي . مانعت فهددوني بالتسفير ولكن بعد التشهير والحبس ، والتهم الجاهزة . فاستجبت مرة وشاركت في نشاط رسمي ديني أرادوه ضد الحوزة ، ولكني احتطت بأن أجريت استشاراتي واتفاقاتي مع الأساسيين من أهل الحوزة وعلمائها وأساتذتي ، واتقيت شر الاستحواذ والاستخدام في حدود . وبعدها قررت أن أرحل ، أن أترك حياة العلم طمعاً بالنجاة . وهكذا كتب علينا أن تكون أنظمتنا التي تدّعي التقدمية سدادة للمعرفة والعلم لأنها وضعت الحرية في أسفل اهتماماتها ، وتخيّلت وربما تخيّلنا معها أحياناً ، أن التقدم والوحدة والتحرر تتم من دون شرطها الانساني في الحرية .. من هنا كان يجب أن نرى الى مسألة الوحدة والنهضة وفلسطين والعدالة الخ .. ومن هنا كان يجب ألا تنطلي علينا الحيلة باستخدام الشأن القومي لمصالح أقل من قطرية ، لأن إنجاز دولنا الوطنية هو المدخل الطبيعي للنهوض القومي بالمعنى الاجتماعي لا بمعنى المشروع السياسي الاختزالي المدمر ، من هنا انعقدت علاقتي المبكرة ، وفي النجف تحديداً ، مع القضية الفلسطينية ، خصوصاً على مفصل النكسة ١٩٦٧ وشرعت مع مجموعة

من زملائي في البحث الدائب عن مدخل للإسهام بخطوة على طريق فلسطين .

وتهيأت لي مع بعض الأصدقاء والزملاء (عبد الهادي الحكيم ، فاضل الميلاني ، مسلم الجابري وهاشم الطالقاني) فرصة ذهبية ، والذين أعدوها لنا كانوا يعتبرونها كذلك . فالنكسة عام ١٩٦٧ تحد كبير جداً ، ويتركز هذا التحدي في أماكن كثيرة ، في الجغرافيا والتاريخ ، والسياسة والفكر والأدب الخ .. فهو تحد للفكر السياسي القومي واليساري الذي كشفته النكسة بعد عقود من الاستقلالات الوطنية والدولة والمعارضة والدعاوى ، وهو تحد للفكر الاسلامي الذي اقتصر في الفترة السابقة على الممانعة والمعاندة ضد أمراض الحداثة وعينه على إيجابياتها من دون أن يراكم أو يؤصل الإجابة عن أسئلة عصر النهضة ، ما أفسح في المجال لقوى اسلامية حركية سياسية من منطلقات ميدانية عامة ، على تواضع في محصولها المعرفي ، أن تتصدى لإعلان الاعتراض على الواقع السياسي والثقافي ، بدءاً من تأسيس الأخوان المسلمين أواخر العشرينات وصولاً الى تأسيس الحركة الحزبية في النجف ، عندما بلغ السيل الزبى مع الدولة اللادولة بعد الثورة ، حيث تحولت التقدمية في العراق الى اختزال الشعب والوطن والسياسة ، والى نهج تقويضي للموروث الفكري والديني من دون اختبار لصلاحية الأطروحة البديلة .

وقررت جميعة منتدى النشر وكلية الفقه أن تولينا كطلاب مهمة إصدار مجلة الكلية (النجف) بثوب جديد ومضمون جديد .. وتصدينا لمهمتنا بجد وحماسة معقولة . وكانت فلسطين هي المحور ، منها أطللنا نقدياً على الذات وعلى الآخر ، واستعدنا إيقاع أسئلة عصر النهضة وطموحاته ، مع إضافات مستجدة . وكانت المقاومة كرافعة كرامة حصرية بعد النكسة ، أهم ما اعتنينا به ، من ضمن جو حوزوي نجفي ملائم ومشجع من دون أن يمتد هذا التشجيع الى كل الأفكار التي ركزنا عليها ، وذلك يعود في ما يعود الى أن النجف ، على جاري عادتها ، منذ الثورة الدستورية (١٩٠٦ م) بعد ثورة التنباك (١٨٩١م) الى ثورة العشرين ومقاومة الاحتلال الانكليزي ، وجدت نفسها معنية أكثر بالشأن العربي والإسلامي ومنسجمة مع تاريخها في ذلك . فاهتمت بالنكسة والمقاومة اهتماماً ملحوظاً . وفي لحظة كان النظام العراقي الجديد (١٩٦٨م) طري العود ، فعندما استحكم منعنا ومنع النجف من الاستمرار في ترسيخ ونشر أفكار المقاومة وسلوكياتها .. ولكن النجف ونحن منها ، كنا قد أنجزنا ما يحدد موقعنا وموقفنا .. استقبلت النجف المقاومين في ١٩٦٨/١/١ استقبالاً رائعاً .. وأفتت مرجعيتها بدعم المقاومة بكل شيء. بعدما كانت قد سيّرت وفودها العلمية والفكرية الى أقطار اسلامية عديدة لاستنهاض الهمم في وجه الخطر الداهم فضلاً عن الجاثم ، وكنا عبر مجلة النجف نساهم في الجو العام ومن خلال نشاطنا الخاص ، ما أثار الكثيرين من دعاة الهدوء والبعد عن المغامرة ، وكان أكثرهم اعتراضاً علينا هم الذين فسروا هدوءهم سلوكياً بالإنحياز الى الاستبداد

، فذهب بعضهم الى شاه ايران واجداً فيه المثال . أما نحن فكنا قد شبعنا غضباً من تصرف الشاه أثناء حرب حزيران (الإمداد بالنفط) واستذكرنا موقف المعارضة الإيرانية ، والإمام الخميني رمزها أمام عيوننا منفياً في النجف ..واستحضرنا موقف الشجب لشاه ايران ونظامه الذي تجرأ على اقامة علاقات علنية مع الكيان الصهيوني ، فكان ذلك مفصلاً في حركة الشعب الإيراني ضده ، ما جعله يرتكب جريمته المعروفة في /خراد حزيران/ ١٩٦٣م.

الى ذلك فإن عملنا لم يرضِ القوى الحركية في النجف ، فتعرضنا لعملية تشهير ومضايقة شديدة .. وإنصافنا ، وإنصاف أساتذتنا وروادنا في هذا المجال يقتضي التوكيد بأننا لم نتأثر أبداً ومضينا .. والذي وضع حداً لنا هو الذي وضع حداً للنجف كلها ، أعني النظام، الذي منعنا عام ١٩٦٩ من تنظيم احتفال بذكرى معركة الكرامة واستشهاد (الأخضر العربي) المناضل في جنوب لبنان ، تحت طائلة العقوبة ، سجناً وطرداً وتعذيباً .. فامتنعنا . وأصبحت المقاومة والقضية ملعباً للنظام ومزاجه المتقلب . وتوقفت مجلة النجف عن الصدور نهائياً حتى الأن ، بعد تسعة أعداد من سنتها التي تولياها فيها وحاولنا الانسجام والتميز فحققنا قليلاً من ذلك وانقطع طموحنا عن تحقيق الكثير . وعدت الى لبنان من النجف حاملاً معي حزمة من الهموم ، تمتد من تجديد الفكر الاسلامي الى نقد الحداثة ، على رغبة فيها مشروطة بالتوازن ، مع تسجيل نقد على التجربة العربية في أنها انشغلت بالتحديث من دون فكر أو سلوك حداثي ، فراكمت ماديات محددة بلا روح ، لم تلبث أن تحولت الى أعباء حضارية ، واحتاطت لأمرها بأن رفعت شعار (لا صوت يعلو فوق صوت المعركة) ليكون ذريعتها الى تعطيل كل شيء ، الى تعطيل الحداثة ومسخها واستغلال الموروث لصالح تخلفها ، في حين بقي دعاة الحداثة مجرد حاملي أفكار معرضين لتشنجات المعارضة مرة وإغراءات السلطة مرة اخرى .

تواصلتُ ببطء مع حركة المقاومة. وبسبب من ذاكرتي الفكرية أو الفكروية القريبة المحمولة من النجف ، وبسبب تكويني الأدبي ، احتملت أن يكون المجال الأدبي مدخلاً الى الوفاء لاستشعاراتي بضرورات العمل المجدي . فتعاونت مع عدد من الأدباء والشعراء الذين حققوا اعترافاً بأنهم وعود حقيقية ، وأسست معهم "منتدى أدباء جبل عامل" وأذكر منهم وأعتذر ممن أنساه ، محمد علي شمس الدين ، الياس لحود ، شوقي بزيع ، حسن داود ، حمزة عبود ، حسن العبد الله ، محمد العبد الله ، عبد الكريم شمس الدين ، موسى شعيب ، عباس بيضون ، محمد علي وأحمد فرحات .. وكان يطل علينا شربل داغر من تنورين وعصام العبد الله وجهاد الزين وغيرهم. وفي مسوّغات أو دواعي التأسيس ما كان مشتركاً بيننا من دون أن يكون مدخلاً لتواطئنا على العمل ، ألا وهو سعي "المجلس الثقافي للبنان الجنوبي" الى اختزال الحركة الأدبية والفكرية في جنوب لبنان ، الذي يضج بحيويات تاريخية وراهنة مهمة ، ما يعني ان الحزب الشيوعي من خلال النشاط المميز واليومي المتفرغ

للأستاذ حبيب صادق رئيس المجلس سوف يستحوذ ليوظف استحواذه في طريق سياسي بدا كأنه حصري واختزالي ، أي غير حقيقي.. ونشطنا بأسلوب مختلف .. ندوة لمدة يومين في النبطية قسمناها الى قسمين ، مداخل نظرية ونقدية ، وقراءات شعرية مميزة . وبقينا أشهراً نعقد ندواتنا على طريقة المشائين أو مسرح الشمس الأسباني الجديد .. في القرى وفي الهواء الطلق ، جلوساً على التراب أو الحصير حول أكواب الشاي الخاصة "الاستكانة" (مصطلح تسرّب من اللغة الروسية الى الفارسية ومن ايران الى النجف ومن النجف عبر العلماء وأسرهم الى جبل عامل) .. والمجلس مفتوح لأي مشاركة .. وكثيراً ما كان أناس عاديون يدخلون مجالسنا ويتفرجون علينا .. كأننا كنا نحقق بعض ما طمح في تحقيقه لاحقاً مسرح الحكواتي وروجيه عساف ، بحيث أني وجدت نفسي في لحظة شريكاً في حدود جزئية (لاحقاً) في نشاط عساف والحكواتي . في هذه الأثناء كان السياب في ذاكرتنا جميعاً .. في حين توليت تعميم صلاح عبد الصبور الذي لم يكن مهملاً لدى الشركاء . أما بعض الروائيين وكتّاب القصة المتميزين الان في مصر خصوصاً ، مع بعض العراقيين ، فقد توليت التعريف بهم والاستشراف المشترك لمستقبلهم مع الشباب من خلال قراءتي لبعض انتاجهم المنشور في مجلة الهلال التي كنت أدوام على قراءتها منذ أواسط الستينات في النجف مع الآداب والفكر المعاصر والكاتب والطليعة والطريق والأديب والمعرفة .. وهكذا لم يفاجئنا لاحقاً جمال الغيطاني ، وابراهيم اصلان وعبد الحكيم دياب وصنع الله ابراهيم ومحمد خضير والطاهر وطار وموسى كريدي وأبو المعاطي أبو النجا الى الشعراء أمل دنقل ويوسف الصايغ وحسب الشيخ جعفر ومظفر النواب خاصة في شعره الشعبي الأثير لدي .

لقد اجتمعنا أو تجمعنا بعدما كان الشباب قد خاضوا غمار الجدل حول الفكر والفن والإبداع في كلية التربية في الجامعة اللبنانية ، متحلقين حول شيخهم أدونيس ، منفتحين على المطران جورج خضر .. منطلقين مع انطلاقة مجلة مواقف برئاسة سمير الصايغ .. وكنت حاملاً مثلهم للمؤتمرات الأدونيسية من النجف ، حيث شكل لبعضنا كل من أدونيس والسياب وعبد الصبور وخليل حاوي وسعيد عقل واحات نتفيأ ظلالها في صحرائنا الشاسعة ، ونقضي ليالي التقفية مع المتنبي وأبي تمام وشوقي والشريف الرضي ، ونعود صباحاً الى معاركنا حول القديم والحديث بقيادة أستاذنا ورفيقنا وخصمنا الدائم الشاعر العالم مصطفى جمال الدين ، حيث كانت لياليا في منازلنا وصباحاتنا في كلية الفقه وآصالنا في الرابطة الأدبية مصدر حيوية لنا ولمن حولنا ، حتى أن النجف الحوزة التي كانت تتوجس من حركتنا لم تبخل علينا بنظرة يشتبه فيها الشك بالإعجاب ، من هناك جئت مستظهراً ديوان التحولات لأدونيس ، ما أهلني للدخول في الأسرة ، التي انفض بعضها عن قطبها بنسبة أو بأخرى من دون أن انفض معها . ولأكتسب الجنسية كان لا بد لي أن أكتب في "مواقف" ، مجلة أدونيس أوائل السبعينات ، وكتبت قصة قصيرة (احذروا التعامل مع الغجر) وتحمس الشباب

لمناقشتها ، وعقدنا الجلسة في منزل موسى شعيب في النبطية .. ودار النقاش وكان أكثرنا حماسة في النقاش (أحمد فرحات) الطويل الدمث والشفاف والعصبي أحياناً .. وناقش بطريقة لم ترقني فأحببت أن أمضي معه الى النهاية وبعد جدل طويل اعترف أحمد بأنه لم يقرأ القصة ونقدها بناء على فهمه لي كرجل دين إشكالي لا أكثر .

فجأة سافرت الى النجف مشاركاً في تشييع أحد العلماء ، قضيت اياماً اتفقت خلالها مع استاذي السيد محمد تقي الحكيم وصديقي السيد عدنان البكاء ، وكان قد اصبح عميداً لكلية الفقه ، وزميلي الصديق السيد عبد الهادي الحكيم ، على تشكيل فريق يعيد قراءة التراث (الموسوعات) للفرز بين المنقضي من الماضي وما ليس بالضرورة أن يمضي وينقضي من هذا الماضي ، ونعيد طباعة ونشر ما ننتهي اليه مقروءاً على معايير نقدية منهجية أصلية متجددة . وبعد أيام من عودتي الى لبنان وضبت حقائبي للسفر ، والتقينا في منزل الاستاذ محمد علي شمس الدين لنعالج استمرارية المنتدى .. واتفقنا على صيغة ، ولكن الشباب ظلوا على تحفظهم من كون دوري في المسألة مهما ، وقد لا يستطيعون الاستمرار.. تقديري أن السبب في هذا الفهم للمسألة ليس عائداً الى قدرات غير عادية لدي ، بل لأن هناك كما يبدو فرقاً شاسعاً بين الثقافة والقدرة الإبداعية وبين مستلزمات الإدارة ، وهذا ليس عيباً ، ذلك ان الإبداع له شروطه في المبدع وأهم شروطه الفرادة والفردية .. والناس يقدرون ذلك ويتحملون ما يبدو كأنه مزاج لدى المبدع ، في حين أنه راجع الى دخول الشك في تكوينه ، وعندما يصبح المبدع يقينياً ينتهي الإبداع .

وسافرت الى النجف وبعد اسبوع عدت بعدما اكتشفنا ان إمكانيات تنفيذ تصورنا العلمي قليلة بسبب حساسية متوقعة لدى الحوزة ، نستطيع أن نتفاداها بشيء من المرونة والتروي ، ولكن عيون الأجهزة كانت قد أصبحت مفتوحة علينا ، وهي ، لأنها تطمح أن نكون في لفيفها ، ليست على استعداد للتسامح معنا أو قبولها منا ما قد تقبله من خصومها الآخرين ، اي من سائر العلماء والمفكرين والأدباء المتمسكين بجذوع الحرية والاستقلال والكرامة وفروعها . وكان من المفترض أن أعود لممارسة دوري في تنمية منتدى أدباء جبل عامل .. ولكن هناك سببين ، احدهما مباشر والآخر غير مباشر ، جعلاني أنصرف عن هذا الشأن ، الأول أني كنت منذ أسابيع ، قد لاحظت أني فقدت التواصل مع أهل القرية ، وأنا إمامهم ، لأن الجلسة الأسبوعية مع الأدباء تمتد آثارها على مدى أسبوع لتطبع لغتي مفردات واهتمامات ومضامين . وحتى أتحقق من ذلك سألت والدي عما يقوله هو ويقوله الآخرون ممن اجتمع اليهم في المسجد أو الحسينية أو المنزل .. فعبّر لي بطريقته عن وجود الأزمة التي توقعتها . اذن فما عليّ لأكمل مسيرتي الأدبية الإشكالية لأنها حداثية ، إلا أن أبدل في شروطي ، وأول ذلك أن لا أتجشم وأجشم الناس عناء إمامتي لهم ، والثاني أن أبتعد عنهم في القرية

وهذا أمر صعب جداً، فيبقى أن أنتقل من القرية الى المدينة . وهنا لعبت ظروف العيش ومستلزماته لعبتها ، فبقيت في القرية على مسافة من الحراك الأدبي ما كان لدى الشباب بداية لمكان ثقافي يكونون فيه ، وكانوا قد تخرجوا وأصبحوا موظفين ، أي ارتاحوا وأخذوا يبحثون عن المتاعب ، فعادوا وقيّموا الحركة الوطنية واليسار عموماً ، ومالوا إلى إنصاف الحزب الشيوعي ، ودخلوا فيه ، ومنه دخلوا الى المجلس الثقافي للبنان الجنوبي -ذاته- ودخلوا في جدليات الحرب الأهلية عام ١٩٧٥ وإن كانوا لم يتأخروا كثيراً في اكتشاف التناقضات ليعودوا أكثر حرية وتحرراً من الأوهام، واقرب الى الليبرالية، وأحياناً مع جنوح يميني (أعني أكثرهم هنا). والثاني ، اي السبب الثاني لعدم عودتي الى المنتدى لدى عودتي من النجف أواخر عام ١٩٧٢ ، هو أني وجدت (الريجي) (شركة حصر التبغ والتنباك) تحت مظلة الطبقة السياسية الحاكمة في البلد قد شدت الحصار على تعب مزارعي التبغ ولقمة عيشهم ، وأنا حاشد بندوب في الروح والجسد من التبغ المر ، في حين أني كنت أشعر بالمقت والتناقض لكوني رجل دين لا يمارس عملاً بدنياً ، بينما أمي وشقيقتي ما زالتا تحلمان بيوم عطلة لتسهرا قليلاً وتتأخرا في الصباح في نومهما قليلاً .. وينتهي الموسم ولا يبقى شيء .. ليبدأ المزارع الصغير من الصفر . وقرر المزارعون أن يحتجوا ويتظاهروا ، فتظاهروا في الايام الاخيرة من عام ١٩٧٢ واشتد غضبهم فتوجهوا نحو مركز الشركة في النبطية ودخلوه وحطموا بعض زجاج نوافذه، فحوصروا، وسارت تظاهرة ضخمة في المدينة لتفك الحصار، فأطلقت عليها النار، وسقط شهداء أمام عيني وأنا على نافذة مبنى شركة التبغ مع المحاصرين .. مع هذا اليوم بدأ تاريخ آخر في حياتي . ودخلت السجن .

وخرجت منه الى فلسطين والمقاومة وفتح لا كبند أهم أو أكثر أهمية في سلم أولوياتي ، بل كبند رئيسي منه واليه تتفرع وتصب كل البنود .. وإن كان هناك من كان ينبهني الى أنه ليس من الضروري أن تكون القضية بديلاً عامودياً للمسألة الوطنية والمطلبية اللبنانية ، بل يمكن ويجب أن تتعرف الى حركة الجدل بينهما حتى لا تؤثر القطيعة مع المسألة اللبنانية الى الإفراط في الفلسطينية التي لا يناسبها التفريط بشيء من أجلها . وقد انتبهت الى هذا الأمر متأخراً قليلاً . ومطمئناً الى تغلغل فلسطين في ذاكرتي وأشواقي ودمي .

أحلام

" وقال لها إنه كان لا يستطيع العيش إلا بالتنقل من حلم الى آخر"

ميلان كونديرا

إذن وصلت الى النجف الأشرف خريف عام ١٩٦٣م. ، وأنا في الأشهر الأولى من العام الثامن عشر

من عمري . وكنت قبل سفري اليها طلباً للعلوم الدينية ، قد أحببت ، في أول البلوغ أو قبيله بقليل ، أحببت كثيرات ، وأحببتهن كثيراً ، أحببتهن حتى الحذر الشديد من أن تلامس يدي يد إحداهن ، خوفاً عليها من الأذى ! وكنا قد تربينا على أن القيم والنوايا لها معادل مادي لا يفارقها . عندما سافرت حزمت أمر القلب ، وكأنه بيدي ! وقررت أن أقطع بينه وبين منازعه وعاداته ، توهماً مني بأن الدين ، الذي التقطت بعض مظاهره الملتبسة بالنقائض والنواقص ، والذي لم أكن أعرفه ، اكتشفت فيما بعد انه بحاجة الى معرفة دائمة والى تجديد المعرفة به والتجدد بها ، والى انجازه دوماً على موجبات العقل والقلب .. ، إذن فقد قطعت القلب وقطعت معه . توهماً مني بأن الدين يقع خارجه ، ولا يحفل بنبضه ، وأن المعرفة الدينية لها مكان حصري هو العقل ، الذي يعقل ، ويمنع ، (ويمنع القلب أول ما يمنع) ، لأن القلب يشطح ، ولا يتقن الحساب ، وله حساباته التي لا يعرف قواعدها حتى صاحبه ، لأفاجأ بأن الحب في المفهوم النجفي ، وبمقتضى الدين ، هو شرط الدين وشرط العلم وزيت العقل ، ومن دونه يصبح العقل عقالاً ويصبح الانسان خراباً ، وتصبح الأرض يبابا .

في النجف ، رأيت الحجب ، والقطع والفصل (الا في حدود الضرورة) ، بين نصف المجتمع ونصفه ، متحدراً من العادة التي كثيراً ما تتخطى الدين الى ما قبله ، والى ضده أو نقيضه أحياناً ، رأيته يشعل الرغبة ، ويعيد للمرأة ، من طريق آخر ، من طريق القلب عندما يصغي الى الجسد ويصغي اليه الجسد ، وتشتبه الحاسة بالخاطرة ، أو الجانحة بالجارحة ، يعيد للمرأة بعضاً من حساسية موقعها الطبيعي في نظام الكون والحياة والمعرفة. فلا تبقى وظيفتها الحصرية والمثلى هي خدمة علم الرجل ، بل تصبح ضرورة توازن واتزان عصبي ونفسي وعلمي وأدبي واجتماعي وسياسي واقتصادي .. إذن لها المجد الذي لا يعترفون به الا مداورة ، ولا يلبثون أن يقصوها عن صعيد العلم ، لتعود مدججة بمركزيتها وبمخزونها التكويني الفطري ، الذي يعادل العلم كثافة ويتجاوزه أثراً ، حتى إذا ما عاقرت العلم أثبتت أن خصب الرحم يفضي الى خصوبة المعرفة .

ويأتي المناخ الحار جداً والبارد جداً ، وشؤون الحياة اليومية ، واقتصار نظام العلائق اليومية على نمط فئوي مشوب أحياناً بألوان خفيفة من طيوف فئات أخرى (مدنية).. لتضيف الى الرغبة المشتعلة حسابات عيش واستقرار وتفرغ أو فراغ ، يبالغ فيها البعض للحصول السريع على الشريكة .

كتب أحدهم الى والده في لبنان يقول له : إن القمح في العراق يزرع موسمين ، فلم يفهم الوالد مراد ولده وحمد الله على النعمة .. فعاد الولد وكتب اليه قائلاً : إن النعجة في العراق تلد مرتين في السنة .. فردّ الوالد قائلاً : تبارك الله أحسن الخالقين .. فضاق صبر الولد وكتب الى أبيه قائلاً : زوجونا بسرعة ، ولو بـ... فزوجوه .

وكان صحبي من الشيوخ الشبان أو الشبان الشيوخ قد ضحكوا ذات ليلة وتهامسوا فيّ وتغامزوا علي .. سألت : ما الخبر ؟ فقالوا : اصدقنا القول ، وإلا كان مصيرك الى سفر: أنت لست من أسرة مشايخ ، لم يرسلك أهلك الى النجف تأميناً لاستمرار الأسرة وإكمالاً لمسيرتها وحفظاً لموقعها ، إذن ما الذي أتى بك ؟ لا بد أنك أحببت صبية من صبايا ضيعتك ولم ير فيك أهلها كفؤاً لها ، وعدمت الطريق اليها ، فأتيت الى النجف ، لتذهب منها باغراءات اللباس والملبوس من دين وعلم وموقع اجتماعي ويسر في حدود ما يتيسر ، فتصل عن طريق النجف الى مرادك ومرمى فؤادك .. سألت : وهل حدث مثل هذا مع غيري ؟ قالوا كثيراً .. فأكبرت الحب وما يصنع ، ثم قرأت قول الامام الصادق (ع) "وهل الدين إلا الحب" ، وشعرت بأن ما في داخلي حق ومشروع وحقيقي عندما قرأت قول الرسول الأعظم المصطفى الحبيب (ص) "استفت قلبك ، وإن أفتوك ، وإن أفتوك".

وهكذا عشت سنتين أحلم بالزواج ، بالثوب النظيف والطعام الشهي ، والذي سوف يكون بالقطع شهياً بالمقارنة مع اللبن الحامض والبندورة والخيار .. خياراتنا الغذائية شبه الحصرية ؛ الا اذا كانت هناك مناسبة و(قيمة) ودعينا اليها وقضينا لبنات الروح والجسد معاً . وعدت في الصيف الأول الى لبنان سعياً وراء الزواج فلم أوفق لأسباب عدة . وفي آخر الصيف الثاني حصل التوفيق .. وبعد الزواج أخذت أحلم بالولد ، لم ينغص على حلمي الا مترتبات الزواج من أجرة المنزل الى المصاريف اليومية الراتبة . ولم أكن محظياً لأنال عطف أصحاب القرار في الشأن المالي في الوسط اللبناني ، لأني كنت قادماً من غير سياق المشيخة التقليدية ، كما كنت على قدر من النزوع الى الاستقلال والحرية والأسئلة التي تظهر لأهل المجتمعات القارة ، وكأنها انحراف يستدعي قمعاً ومنعاً لا حواراً .

وبعدما جاءني الولد صار الحلم يروح ويجيء بين سريره ومضجعي ، بين صحته ومرضه ، بين نومه وأرقي ، بين ضحكه وبكائه وخوفي وفرحي ، ويتجول مرتاحاً بين كلمة ملثوغة وكلمة مقلوبة تكسر نظام اللغة وعمودها وتعلن الشعر والورد .

في هذا الجو المفتوح على حوارات الحياة وجدالاتها وسجالاتها .. حدثت الحرب في حزيران ١٩٦٧ في يوم امتحاننا في مادة البلاغة (المعاني والبيان والبديع) .. وكانت النكسة التي كانت قبلها النكبة .. فاستولى علي حلم التحرير .

كانت زوجتي صابرة مقدرة لظروفي وأحلامي ، من دون أن تشترط علي تقدير ظروفها وأحلامها حتى إذا ما قررت أن أقدر ظروفها ، اي بعد خراب البصرة ، وبعد أن لم يعد بإمكاني مراعاة ظروفها وتحقيق اليسير من توقعاتها فضلاً عن أحلامها ، كانت الفرصة قد فاتتني كما فاتتنا فرصة التحرير .. وكانت ، أي زوجتي ، تمسك بي خشية علي من السقوط عن السرير ، وأنا منتصب القامة مرفوع

الهامة وسطه ، وسط الليل ، ليلة بعد ليلة ، وسبابتي تلعب بهواء الغرفة الضيقة كما يلعب الشاعر بهواء الأحزان ، وأعلن الجهاد حتى تحرير آخر شبر من أرض فلسطين . ولا أنسى لواء الأسكندرون ، كما أخبرتني زوجتي ، ولا ارتيريا ، وقد أمرّ في بعض الليالي على الأندلس "أندلس الأعماق، أندلس الطالع من دمشق يحمل للغرب حصاد الشرق" – أدونيس - .

مع بدء العمليات الفدائية ، وسماعنا الدائم الدؤوب للشيفرات في الاذاعة ، ذهبت من الكلام في الهواء الى التكنولوجيا الناجعة والعمليات المدبرة ، صار حلمي أن أخوض عمليات عسكرية فدائية أخطط لها بسرية تامة وإتقان وإبداع لتدمير العدو في لحظة واحدة ، لم أكن أعرف مصادر علمي العسكري ، ولم أكن ، بعد قد قرأت كلاوز فتز وكارلوس مارغويللا ، وعندما قرأتهما كان أثرهما علي أقرب الى أثر الشعر منه الى أثر علم الحرب ، أو "حرب الغوار".

وكانت الأهداف تتغير بين ليلة وأخرى ، بحسب تصوري الساذج لمركزية الهدف "ما زالت كذلك" أو بحسب مزاجي ، من الكنيست اليهودي الى مجلس الوزراء العبري ، الى الهستدورت الاسرائيلي ، الى قيادة الأركان الصهيونية ، الى مستودعات الذخيرة ، الى المفاعل النووي في ديمونة وعلي وعلى أعدائي يا رب .

ولأن هذه العمليات تحتاج الى قوة بشرية ماهرة ومعبأة ومدربة لا قبل لي بها ، قررت ذات منام أن أختزل المسألة وأختصر الطريق بأن أتحول بقدرة قادر ، الى انسان "بالستي" الى صاروخ هائل وخرافي (ربما كان ذلك مترسخاً من الحالة الكوسموبوليتية التي أتتني عدواها ممن عاشرت من القوى القومية واليسارية والأممية والاسلامية العالمية) .. إذن صاروخ عملاق موجه ، مطيع وطني وفعال ، ينزل بدفع ذاتي ، أول الفجر في ليلة قمراء ، على قيادة الأركان الصهيونية فيدمرها حجراً حجراً ، وخريطة خريطة ، وإحداثية إحداثية ، وفرداً فرداً ، دفعة واحدة في ثانية أو أقل ، قبل أن يرتد اليك طرفك .

ويعم الإرباك الشديد صفوف العدو ، وعقله وجيشه واداراته وأمنه ، وجميع مؤسساته الرسمية والمدنية والأهلية ، وآخذ أنا ، على مهل ، باصطياد المواقع الحساسة في الكيان الغاصب ، وهي تتهاوى أمام ضرباتي وكأنها علب "كارتون" وأعصابي متماسكة وهادئة وباردة ، تغمرني الثقة ، ويجللني التواضع ، والحرص الشديد على أن أبقى حياً لأرى أثر صنيعي في الناس والتاريخ ، أو أن أستشهد ، إنما بشرط أن يكون بإمكاني أن ارى الاحتفاء بجسدي الطاهر ، والاحتفال بفعلي الرائد ، وأسمع الكلمات والقصائد التي تقال فيّ .. وأستمتع بذهول العالم ، وجهله اسمي ، وكل ليلة ، بعد العملية ، كنت أعود الى قريتي ، لا الى النجف ، لأرى أمائر الإعجاب المرتسمة على وجه أمي

وأبي وأترابي والمختار وأعضاء المجلس البلدي .. الله .. الله .. إنهم لا يعرفون أني وراء كل هذا المجد القومي !! فما حالهم إن عرفوا ؟!

بعد مشروع "روجرز" والحرب بين المقاومة والجيش الأردني ، أخذ الحلم يختلط بالمنغصات ولم يلبث أن اصبح ملتبساً بالكابوس ، فقد حلمت ذات ليلة بأني جالس في الصف الأمامي في استاد عربي ، والمناسبة هي احتفال عربي –اسرائيلي مشترك بالذكرى الأولى للوحدة الاندماجية ، والعياذ بالله ، وفجأة أخذت الطائرات الاسرائيلية من نوع "فانتوم" و"سكاي هوك" تغير على المكان وتدكه ، وتسقط منشورات تعلن ان حركة انفصالية قد حصلت بقيادة موشي دايان !

أويت الى عب زيتونة قرب منزلنا في جبشيت ، كنت أختبئ فيها عن عيون أترابي لعباً ، وعن أعين أمي خوفاً من عقوبة على إهمالي في نظافة البيت .

عندما تحولت أحلامي الى كوابيس متصلة ومتواصلة ، هربت الى القرآن والشعر والتاريخ والحوار اليومي والجدل المتوتر ، والمتابعة اليومية ، ورفع منسوب الوعي السياسي الذي كنت أفتقر اليه كثيراً ، وعندما تعاطيته لم أغتن منه أو به كثيراً ، على عكس ما سجله علي بعض الإطلاقيين من خطباء الاسلام السياسي ، من أني ذهبت الى النجف على خلفيات سياسية قومية واشتراكية ، في حين كنت عروبياً بما هي العروبة انتماء ومكون ، ومسلماً بما هو الاسلام إيمان يذهب عميقاً في الداخل ، ويزهر في الخارج ، ويزدهر بالمعرفة والمحبة ، ولم أكن أميز بين حزب أممي وآخر ، أو حزب قومي وآخر ، أو حزب يميني وآخر ، أو بين حزب اسلامي وآخر ، كما لم أكن معنياً بالتمايزات من دون أن ينعكس ذلك موقفاً تفصيلياً من أهل الأحزاب وأفرادها .

إن السعي الى تحصيل الوعي أفضى بي الى أحلام اليقظة ربما لأن لها علاقة أقل تعقيداً وإشكالية باللاوعي والمكبوت والمسكوت عنه من الإحباطات ، وبالطبقات الغائرة في التكوين والوجدان ومنابع الوجع والألم والتباريح التي لا تبرح وهكذا أخذت أختم صحواتي المكدرة بحالة بين اليقظة والمنام ، وأخوض عملية التحرير يومياً بأشكال وسيناريوهات مختلفة وأحياناً متناقضة . وقد يتطور الأمر الى وضع شروط على عملية التحرير ، قد تطال السياسة اليمينية واليسارية والأنظمة التي أراها معيقة تهدف –الشروط- الى القضاء عليها وتصفيتها سياسياً او مادياً ، إن اقتضى الأمر ، لكن كراهيتي لمرأى الدم الداخلي كانت تجعلني أتراجع وأخفف شروطي .

بعد عودتي الى لبنان عام ١٩٧٢ ، بدت لي الإقامة الطويلة في الأحلام أمراً مضنياً ، فدخلت في مشروع أدبي ثقافي "منتدى أدباء جبل عامل" لكن صاحبي أيقظني من نومي على أزيز الطائرات المغيرة على مخيم النبطية الفلسطيني ، قبيل موعد على ندوة نقدية للشباب في نادي الشقيف ، وأدركت

أن الحائط مسدود فذهبت الى مزارعي التبغ ، الى أمي ، أعرض عليهم وعليها زيادة على الشراكة في الهم والتعب والسهر والمرارة وقلة المردود والشحوب والوهن ، المطالبة بحقهم ، فقتل بعضنا وسجنا ، وأحبطنا ، وتاجر بنا بعضهم وصادرنا آخرون ، فقلت في نفسي : لنعد الى التحرير مدخلاً الى التحرر ، وسبيلاً الى الكرامة لأن اسرائيل هي العقدة ، وفلسطين هي القضية ، وانخرطت في المقاومة وفي الجدل اليومي بين الفعل المحرر والوجع المبرح وأصبحت قناعاتي مثالاً للتندر ، حتى سألني زميل وصديق : وماذا تريد ؟ قلت : يا أخي حرروا فلسطين بمساعدتي أو من دونها ، وأنا أذهب لأشتغل مبيضاً للنحاس .. وبقيت موغلاً في أحلامي ، وغير مواظب ، أو قليل الاكتراث بشؤوني الخاصة ، وبحاجات الأهل والجسد ، أريد فلسطين وأنتظرها وأضرب لها المواعيد ، ولا تصل ولا أصل . ربما كان هذا الآن كلاماً يندرج في قائمة الأدلة على (الفساد) لكن الوقائع والفتن والحروب الداخلية وداخل الداخل ، وداخل داخل الداخل ، والتكشفات وظهور العورات البنيوية في عمارتنا الفكرية والسياسية ، عادت فوضعتني على مسار الإحباط .. فماذا أفعل ؟

أنا مدمن أحلام .. حولت حلمي الى اتجاه آخر ، اتجاه تنموي نهضوي تربوي شامل ، وتدبرت لي مشروعاً ..

تستمر ، كما هو معروف ، الأزمات والحروب والتراجعات والانكشافات السياسية والفكرية والاقتصادية والفنية والأدبية والسلوكية والقومية والطائفية والوطنية .. فماذا أفعل ؟ قالوا لي: يا رجل روح دبر حالك ، كفاك وهماً وإهمالاً لشأن أهلك وغراماً بالفقر .. طاوعتهم .. فماذا أفعل: غيرت سياق الحلم مرة ثانية .. لأني مريض بالحلم .. شخصنته هذه المرة ، خصخصته مع بداية الحديث عن الخصخصة ، غير أني أبقيت على شيء من الرومانسية وعمومية المنفعة في البستان الواسع ، الذي اخترت له أرضاً في "الوطى" بين قريتي وقرى حاروف والدوير وأنصار وعبا والزرارية ، وهو مكان كنت منجذباً اليه ، وعلى حب مشوب بالكره أحياناً ، بسبب متاعب زراعة التبغ الليلية النهارية والتي تستغرق ١٤ شهراً من السنة الواحدة ، لأنه وعلى مدى سنتين من فتوتي ، استأجرنا رخصة تبغ من قرية عبا المجاورة وزرعنا، كما يقتضي قانون الريجي ، زرعنا تبغنا في وطى عبا وكنت أراه ليلياً ، وأنا أغالب النعاس فيغلبني وأنام على ظهر الدابة ، أو في طرف الحقل ، تحت شمس الصباح الحادة ، ومرة أفقت متورماً ، ظناً أنها لدغة أفعى والله سلمني ، وكنت أرى "الوطى" غابة من اللوكسات والأنوار المتصلة تتخللها أو تقطعها "العتابا والدلعونا والميجنا" تطلع من قلوب الصبايا القاطفات قبل حناجرهن ، وتحمل تعبهن ورائحة أحلامهن بالخلاص والراحة والنوم الهانئ وبالفارس الآتي ولو على ظهر حمار أسود .

وأخذت أقضي ساعة أو ساعتين من ليلي قبل النوم غارقاً في شؤون بستاني المرتجى .

بيت جميل ومتواضع في الوسط أمامه مساحة مخصصة لسيارات الزوار ، ومساحة أخرى بمثابة مصطبة للسمر وجلسات الصباح والأصيل ، متصلة بمساحة خضراء (كازون) ومسيجة بأنواع من الورد ، ثم صف من أشجار الظلال تليه مساحة مخصصة لزراعة الخضار الصيفية والشتوية والبين بين ، من دون بيوت بلاستيكية ، ونقاش طويل ذاتي حول المساحة المخصصة لكل صنف منها وللأصناف الفرعية .

ويلي هذه المساحة مساحات من الأشجار المثمرة، خيمة من الكرمة ، والسياج الداخلي من أشجار الرمان واللوز ، تعرض أشجار الكرمة عليها وفيما بينها على الطريقة الريفية القديمة ، أي الفوضى الجميلة ، مع تخيل أو استحضار لخصل العنب الصغيرة المختبئة خلف الأغصان والمنسية حتى الخريف ، حيث يصبح الأبيض أحمر من شدة النضج وموشوماً بالسلاف بحيث يحسن العناء في البحث عنه والظفر به .

وبعد السياج نصل الى مشكلة ترتيب الأنواع الأخرى ، صفوفاً أو مربعات ، وفي أولوية تقديم أو تأخير صنف على آخر ، زيتون بلدي وطلياني وزغلولي ، وتين عسلاني وبقراطي وبيضاوي وعصفوري وحمراني وسوداوي .. وافرنجي مبكر وشتوي متأخر ، وصيداني حرصاً على النكهة الحامضة ، مع تنويعة من الخوخ والمشمش والزعرور والعناب والدراق والإجاص والتفاح والليمون والبرتقال وكم نخلة ..وهلم جرا .. وفي طرف من أطراف البستان بيوت صغيرة وشرعية للفلاحين مع تصور كامل لنمط العلاقة معهم ، حياة مشتركة ، كالعيش المشترك وحوار كالحوار الوطني ، أو حوار الحضارات ، وضمان صحي واجتماعي وكفالة بتعليم أولادهم حتى المرحلة الجامعية ، من دون توقف عند مشكلة عدم إمكان اشتغال المتعلم الجامعي بالأرض ، والسعي لتزويج البنات والأولاد وتجهيزهم ، ومشاركة تامة في المأكل البلدي ، والملبس والمشرب والشاي والعمل واللعب والنزهة .. وعلى مقربة من بيوتهم مع مراعاة الأمور الصحية والبيئية ، مزارب للحيوانات اللبون (بقرة أو اثنتان) وقطيع أغنام وماعز .. وحملان وجداء كل سنة مع إمكان ترطيب الجو بعدد من الأرانب وسعدان إذا أمكن الأمر وغزال وغزالة .. وعلى مقربة من عالم الحيوانات اللبون قفص للطيور الداجنة ، دجاج بلدي بالدرجة الأولى وأوز وحمام ، ودجاج فرعوني ، وحجل وترغل وحساسين وبلابل وفري وسلوى ويمام وقطا وكناري وزوج من الببغاوات الرمادية الذكية ، ورف من طيور الحب من كل الألوان .

وفي الختام لا بد من اختيار وسائل النقل ، دراجة هوائية أو أكثر ، سيارة "بيك آب" وعربة خشبية "طنبر" يجرها حماران قويان مدللان ومذللان ، وسيارة "فولسفاغن" بيضاء وعدد من القطط والكلاب البلدية .. أما الأيام فلي منها مع الفلاحين في البستان أربعة أيام صافية ، ويوم

الجمعة للخواص من الأصدقاء وأهل الفكر والسياسة ، ويوم السبت للأهل مع ليلة الأحد ، للأولاد وللأحفاد ومن يتصل بهم ، ويوم الأحد مفتوح .. ويرتاح الجميع في الطابق السفلي المدفأ شتاء ، وفي الخيمة التي تلي المنزل صيفاً متكئين على الأرائك مستلقين على الزرابي ، يروح عليهم ولدان مؤدبون بالماء والشاي والقهوة والزوفة والكاكاو والزنجبيل والزعفران وعصير البرتقال والعنب والرمان .. وأمامهم الصواني حاشدة بالفواكه السائغة .

ويأتي طعام الفطور متأخراً قليلاً ، طمعاً بالمزيد من الاستهلاك بيضاً بلدياً وعسلاً غير معلوف ولبناً ولبنة وجبنة وكشكاً وزبدة وزعتراً أو سماقاً وزيتاً بلدياً مصفى ، ومربى وكبيساً ومكدوساً الخ .. وبعد الآذان والصلاة وتفقد البستان ، من أوله الى آخره ومداعبة الحملان والجداء والببغاء والغزال والسعدان والأرنب والركوب في الطنبر ، يأتي دور الغداء ويشتعل الحطب اليابس ويعلو الدخان مفعماً برائحة الشواء .. ثلاث أيام هكذا .. وأنا أروح وأجيء بين الصحب مستبشراً ضاحكاً ممازحاً سائلاً عن الطلبات وعن الراحة ، صحتين ويا هلا .. وقليل من الوحل الأحمر اليابس يزين قميصي وبنطالي الكاكي والجزمة الجلدية السوداء المعدة للخوض في الوحل إبان السقي أو القطاف أو التعشيب .

وخلال تركيب الحلم أو تدبيجه أو نظمه أو تأليفه .. يمر ببالي الأدب والشعر والشعراء والنقد فأعين يوماً من كل شهر يأتي فيه الشعراء والأدباء والفنانون والمفكرون من كل المشارب والمذاهب ، توكيداً لحسن التعدد والحوار والعيش المشترك ويأكلون لبناً وبيضاً ولحماً بلدياً ويقولون قولاً وطنياً وذاتياً وزراعياً .

منذ سنتين وبعدما تبين للمرة السادسة ان السياسة في لبنان ليست استمراراً ، بل هي قطائع يتخللها تصحيح بالخطأ الأكبر ، دب اليأس فينا ، ولكني قررت المكابرة ، فأخذت أحلم حلماً أكثر تواضعاً وخصوصية ، ببيت في مساحة "دونم" واحد على مرتفع من مرتفعات ضيعتنا ، مكون من غرفة نوم فيها مكتبة صغيرة ، وصالون متوسط وغرفة لنوم الضيوف إن تأخروا وكانوا قلة ، ومصطبة شرقية صغيرة للعصاري ، وغربية للصباحات ، وأمام البيت خيمة كرمة من نوع واحد وشجرة تين عسلاني ، وعدد قليل من أشجار اللوز والرمان ، للأحفاد ، ومساحة للنعناع والبقدونس والهندباء والبقلة الحمقاء (الفرفحين أو البويردة) وكفى .. ويوماً ، خلال هذه السنة الفارغة والمغلقة على السنة التي تليها ، على المستوى الوطني والقومي ، كنت غارقاً في حلمي المستقبلي الأخير ، أو شبه الأخير ، والله يستر ! فاقتحمت زوجتي عليّ المكان والزمان والحال وطالبتني بمبلغ من المال وفاء لاستحقاق مستعجل . فوعدتها أن أراجع في جريدة السفير ثم في النهار ثم في الحياة لعلي أجد شيئاً وإلا صبرت أسبوعاً ، ريثما تكون الاستكتابات قد نزلت وحياً الى الحاسبة في الجريدة .. وكانت

الرطوبة قد بلغت مبلغها في بيروت ، والغبار المتصاعد في ورش الحفريات قد سد الأفق والرئة .. فقالت زوجتي : لو نذهب الى الضيعة .. وتذاكرنا معاً أن موقع بيت أبي في الضيعة ، في وسطها قرب الساحة وضجيج الميكروفونات اليومي لمناسبة ودون مناسبة ، يضيق علينا فرصة الراحة والهدوء ، فقضينا في النهاية شهراً من الصيف في الضيعة . ولكننا انتبهنا الى أننا لو كنا انتبهنا لبنينا بيتاً صغيراً لنا مستقلاً في الضيعة لراحتنا .. وكان ربك يدبرها .

وعندما أخبرتها أني ما زلت أحلم بذلك البيت الصغير والبعيد والجميل ، قالت لي : أما أنا فإني أندم ، وأجد مبرراً للاستمرار في ندمي ، ولا أجد مبرراً لإقامتك على الأحلام ، أنا ماضوية أستذكر وأنت مستقبلي تتوهم ناسياً أنك "الصيف ضعيت اللبن" وترجمتها بالعامية "قال علمناك مسحر.. فقال : خلص رمضان" .

توقف الحلم الموصول بالتكوين الريفي الذي يشكل بيئة ملائمة للنوستالجيا المخصبة بالإحباط والإصرار على اختراع الفرص التعويضية بواسطة المخيال الذي لم يمرض ، هو المرض ، وقد عاد مخيالي منذ أشهر الى عمله المعتاد ، ولكن على طريقة السبع الذي رأى ظله العظيم صباحاً فقرر أن يأكل جملاً وأخذ يبحث عن الجمل ، وكان حجم ظله يتضاءل مع مرور الزمن وارتفاع قرص الشمس في السماء ، حتى كان وقت الزوال واستواء الشمس على عمودها ، فاختفى ظل الأسد فأخذ يبحث عن فأر .. آخر أحلام يقظتي الذي وقعت فيه هو أن أصبح فجأة ، ومن دون لياقة بدنية أو تمرين أو منشطات كيميائية أو إيديولوجية عداء اسطورياً فأحصد كل ذهبيات الدورات الرياضية العربية والعالمية . ولكن ولدي الخبير بشؤون الرياضة ، أكد لي أن ذلك مستحيل ، لأنه لا يجوز أن أشترك الا في عدد محدود من سباقات العدو ، حسب المسافات وتصنيفات دولية معروفة وملزمة .. إذن سيكون بإمكاني الحصول على عدد محدود .. وإلا فقد كان في نيتي أن أفتح الحلم على كل ألعاب القوى من السباحة بكل أشكالها ، الى رمي الكرة والقرص والرمح والقفز العريض والعالي فضلاً عن الأكروباتيك أو الجمباز الذي أتقنه من زمان .. الجمباز مصطلح يأتي من الفارسية واصله : كان باز .. اي اللاعب بروحه .. ومثله سر باز ، أي جندي ، أي لاعب برأسه .. ربما أضيفت رياضة العض على الأصابع الى المباريات وحينئذ بواقعية ، يصبح فوزي أكيداً .